ري العراق العربي

أتنفض بابل واشور عنهما غبار العصور الغابرة . ويعود الى بغداد عصر الرشيد والمأمون. ويرتع الامن في ربوع العراق وتفيض الخيرات من دجلة والفرات . كل ذلك محتمل وقد صار على قاب قوسَين بعد ان اعتمدت الدول الاوربية على مد سكة الحديد الى بحر فارس . ولكن كم يبقى للسكان من خيرات بلادهم بعد ان تُمكَّن فيها اقدام الاوربيين وتُعطَى لهم الاراضي الواسعة مع الامتياز وكيف يجاري ابناء المشرق الذين ضعفت هممهم من طول ما لقوا من الذل والامتهان ابناء المغرب الذين نشطوا للعمل منذ مئتي عام وهم لا يرون غير مثيرات النخوة ومقويات العزائم حتى من ملوكهم وامرائهم . هذه مسألة يصعب النظر فيها من الآن

اما تلك البلاد فكانت مهد العمران وخصبها الطبيعي مما لا يختلف فيه اثنان وقد كان ريها منتظماً في العصور الغابرة انتظاماً لا يفوقهُ انتظام الري في القطر المصري الآن . ومن رأي السر وليم ولككس المهندس المشهور في هذا القطر انهُ يسهل اعادتها الى ما كانت عليهِ فتصير مثل القطر المصري من حيث سهولة الري والصرف وتدفُّق الخيرات . وقد انشأ خطبة مسهبة في ذلك تلاها في الجمعية الجغرافية فلخصنا منها ما يلي لعلَّة يكون محرِّضاً لابناء الشام والعراق على ترك المهاجرة الى البلدان القاصية وانتظار ما يمكن عملهُ في بلادهم . قال ما معناهُ

ان مدينة بغداد تعلو عن سطح البحر (بحر فارس) ٦٦ متراً وتبعد عنهُ ٥٥٠ كيلو متراً على خط مستقيم او ٨٠٠ كيلومتر اذا قيس البعد على مسير دجلة . وحولها الآن قفار قاحلة ولكنها كانت في سالف الزمن تاج ما تمتلكهُ الدول التي دان لها المشرق . هذا كان شأن البلاد على مئة ميل حول بغداد من كل ناحية

اذا نزلت في دجلة من الشمال الى الجنوب تصل اولاً الى دورا مأخذ ترعة نهروان والسهل الذي نصب فيهِ نبوخذنصر التمثال الذهبي ولعلَّهُ نصبهُ تذكاراً لتجديد هذه الترعة . ثم تل اليج حيث مات الامبراطور يوليانوس من جراحهِ حينما أخرج الرومانيون من تلك الاقطار واستولى عليها ملوك الفرس فدان لهم المشرق كلهُ . ثم تصل الى اوفيس التي كان فيها اغنى اسواق المشرق التجارية ومنها الى بغداد عاصمة الخلفاء العباسيين . فالمدائن عاصمة آل ساسان ملوك الفرس فسلوقية عاصمة المكدونيين في المشرق واخيراً تصل الى بابل سيدة المدائن وهي على الفرات لا على دجلة

والبلاد بين ترعة نهروان وبين دجلة شرقاً وغرباً عجزت قبائل العرب عن العيث فيها فظلَّت اخصب بلدان المشرق وكان ملوك الكلدان انشأوا تلك الترعة وغيرها من الترع لكي يمنعوا الغزاة عن بلادهم كما فعل مينا ملك مصر لما حوَّل مجرى النيل الى الجهة الشرقية امام منف لكي يكون فاصلاً بينها وبين القبائل التي كانت تغزو بلادهُ آتيةً من بلاد العرب

ويقع المطر في تلك البلاد لكنهُ قليل جدًّا لا يكفي للزراعة . يقع في السنة من اربعة سنتيمترات الى ٢٤ سنتمترًا لا غير فلا بدَّ من ري الارض من الانهار والترع اذا اريد ان تزرع شيئًا

ودجلة من بغداد الى بحر فارس قليل التحدُّر لا يزيد تحدُّرهُ على $\frac{1}{14000}$ فهو مثل النيل من هذا القبيل ويفرق عنهُ في ان الدلتا التي يرسب فيها طمي دجلة بعيدة عن مصبهِ وليست مثل الدلتا التي بين فرعي النيل

ويبتدئُ دجلة من الآكام التي الى الجنوب الغربي من بحيرة وان ويمر من عند مدينة نينوى القديمة ويقطع تلالاً حجرية ويعمق مجراهُ حتى يصير نحو ٢٥ مترًا وسرعتهُ مترين ونصف متر في الثانية من الزمان ثم يخرج منها ويدخل واديًا منبسطًا فتقل سرعتهُ وتصير مترًا في الثانية وهناك يلقي ما كان يحملهُ من الطمي فتكوَّن منهُ سهل خصيب حول بغداد . وعلى ثمانين كيلومترًا من بغداد جنوبًا تصير الرواسب التي ترسب منهُ ناعمة جدًّا مخلوطة بالملح وتسمو على ذلك الى البحر فلا تصلح للزراعة مثل الاراضي التي حول بغداد . ويفيض كما يفيض النيل ويغمر الاراضي التي حولهُ من بغداد الى البحر ويصبُّ فيهِ نهران من الجهة الشمالية الشرقية احدهما فوق بغداد والآخر تحتها ويتفرَّع من ثانيهما ترَع كثيرة

ويبتدئُ فيضان دجلة في اواخر فصل الشتاء حتى اذا اشتدَّ الحرُّ واذاب الثلج عند مصادرهِ ومصادر نواصرهِ زاد فيضانهُ فصلح للري الصيفي مثل انهار الهند . وكلما زاد الحرُّ شدَّةً وزادت حاجة المزروعات الى الماء زادت مياههُ فيضانًا

وفي رأس دلتا دجلة خرائب مدينة اوفيس وهي مثل القاهرة في مصر ومنها تبتدئُ الترع العظيمة التي تروي دلتا العراق

وكان للري هناك سبيلان كبيران الواحد بترعة نهروان والثاني بترعة دجيل جنوبيهُ وكان الاقدمون قد اقاموا سدودًا في الاماكن العالية ترتفع بها المياه ويقال ان الاسكندر للمكدوني خرب بعضها ليغزر الماء في دجلة ويسهل عليهِ ركوبهُ بسفنهِ ولا بدَّ من ان يكون بناها بعد ذلك

وترعة نهروان في العراق مثل احد الرياحات الكبيرة في القطر المصري طولها اربع مئة

كيلومتر وقد بلغت اعلى درجة من الانتظام على عهد بني ساسان ملوك الفرس ثم على عهد هرون الرشيد. ولها مأخذان من دجلة حتى اذا ملأ الطمي احدهما ولزم تطهيرهُ جرى الماء اليها من المأخذ الثاني. وبُعد المأخذ الاول عن الثاني ستون كيلومترًا وعند ملتقى المأخذين قنطرة موازنة تسمى القنطرة الكسروية وعند مأخذ الفرع الاعلى قنطرة اخرى للموازنة تسمَّى قنطرة الرصاص لان الرصاص مصبوب بين حجارتها وكذلك عند المأخذ الثاني قنطرة موازنة اخرى وهي الآن خراب

ثم اسهب في وصف الاعمال الهندسيَّة التي كانت على دجلة من ترع وقناطر وسدود وما اشبهُ لتسهيل الري وبيَّن ذلك كلهُ بالرسوم وقال في وصف ترعة نهروان ان ترع مصر لا تقابل بها لان اكبر ترعة في القطر المصري لا يزيد عمقها على عشرة امتار وعرضها على ستين مترًا واما ترعة نهروان فيبلغ عمقها احيانًا خمسة عشر مترًا واتساعها ١٢٠ مترًا. هذا من حيث نظام الري الاول واما نظام الري الثاني بترعة دجيل فمداره على ترعة طولها مئة كيلومتر وعرضها خمسون مترًا

وبيَّن كيف خربت تلك البلاد وعفت آثار مدنها بطغيان دجلة على ترعتيهِ وتخريبهِ سدودها وجرفهِ كل ما في البلاد من مدن وقرى ومزارع وانسان وحيوان فانتشر الخراب في بلاد طولها اربع مئة كيلومتر وعرضها ثلاثون كيلومترًا كانت اعمر بلدان المسكونة واكثرها سكانًا. وعندهُ ان تلك البلاد تعود الى مجدها السابق باصلاح ترعة نهروان واصلاح ري العراق بها. ثم شرح الاعمال الهندسية اللازمة لذلك وقدَّر ما يلزم لها من النفقات وما ينتج عنها من الفوائد فقال ان النفقات تبلغ ثمانية ملايين من الجنيهات يتطلع بها مليون و ٢٨٠ الف فدان من اجود الاراضي الزراعيَّة فيصير الفدان منها يساوي ٣٠ جنيهًا على الاقل فتساوي كلها ٣٨ مليون جنيه ولا يقلُّ صافي ريعها في السنة عن مليوني جنيه فيكون المال الذي ينفق على اصلاحها قد جاء بفائدة ٢٥ في المئة سنويًّا

هذا من حيث الارض العالية التي في بداءة ذلك دجلة اما البطائح التي تحتها ولاسيما بين دجلة والفرات فهي قاحلة الآن ولكن الدلائل كثيرة على انها كانت تروى وتستغلُّ في قديم الزمان كما يظهر من آثار الترع والاعمال الهندسيَّة التي فيها. وهناك ارض مساحتها مليون ونصف مليون من الفدادين بين بغداد وبابل يمكن اعادة ريها وزرعها وقد تلفت منذ عهد طويل وصارت مستنقعات لان الترع التي فيها أُهملت لما تولَّى البلاد اناس لا يحسنون امرها فامتلأت مجاريها طميًا وحشائش وتهدَّمت جسورها فلم تعُد تكفي لاحتواء ما يجري فيها من الماء فاض على الارض التي حولها واغرقها فصارت مستنقعات وبطائح

وقابل تلك البلاد بالقطر المصري وقال ان مجرى النيل لم يمتلئ بالطمي مع ما مرَّ عليهِ

من القرون لان ري الحياض كان من مقتضاهُ اجراء ماء الفيضان الى الحياض على جانبي النيل فيرسب ما فيهِ من الطمي ويعود اليهِ صافياً ولكن اذا بطل ري الحياض في القطر المصري خشي ان يرسب الطمي كلهُ في مجرى النيل فلا يعود كافياً لاحتواء ماء الفيضان كلهِ فيطغى على البلاد ويغرقها وحثَّ على الانتباه لذلك من الآن . ثم عاد الى ري العراق فقال ان نجاح مصر ابتدأ يوم صمم مهندسو الملك مينا اول الفراعنة على اعلاء جسر النيل الغربي وترك الجانب الشرقي من غير جسر حتى يمتنع طغيانهُ على الجانب الغربي فيصلح للزراعة ومثل ذلك يمكن ان يفعل في العراق فيقام جسر لدجلة على الضفَّة الغربية وجسر للفرات على الضفة الشرقية ويمَد جسر الفرات الى ما تحت بابل وجسر دجلة الى عند منعطفهِ . وتصلح الارض التي بين هذين النهرين وتفتح فيها الترع وتزرع

وقد ثبت لي من اعمال الري في مصر ان كل النفقات اللازمة للسدود والترع والمصارف وما اشبه تبلغ خمسة جنيهات ونصف جنيه عن كل فدان والنفقات اللازمة لهُ من تقصيب وتلويط وما اشبه تبلغ ثلاثة جنيهات ونصف جنيه والجملة ٩ جنيهات فيصير يساوي ثلاثين او اربعين جنيهاً وقد قدرنا ثمن فدان الارض على ترعة نهروان في بلاد العراق بخمسة وثلاثين جنيهاً بعد اصلاحهِ واصلاح ريهِ لان الفدان الذي مثلهُ في مصر يساوي الآن من ستين جنيهاً الى مئة فنقدر الفدان الذي يصلح بين دجلة والفرات بخمسة عشر جنيهاً اي بنصف ما يساويهِ الفدان الذي مثلهُ في مصر وهناك مليون وخمس مئة الف فدان يمكن اصلاحها كذلك ينفق على اصلاحها وريها وصرفها ١٣ مليون جنيه فتصير تساوي ٢٢ مليون جنيه

وباضافة الاراضي التي في رأس ذلتا دجلة الى البطائح التي تحتها تصير المساحة ٢٨٠٠٠٠٠ فدان والنفقات اللازمة لاحيائها ٢١ مليون جنيه فتصير تساوي ٦٠ مليون جنيه على الاقل

وفي ذلتا الفرات ودجلة خمسة ملايين فدان اي قدر مساحة الاراضي الزراعية في القطر المصري كلهِ واذا ابتدأ العمل في اصلاحها سهل جلب المال من اوربا لاتمامهِ فان الفدان في مصر يحمل من الدين عشرين جنيهاً ومع ذلك لا يجد الحمل ثقيلاً . ثم اذا مُدَّت سكة الحديد وكثرت فروعها في البلاد زاد السكان وزادت الخيرات وارتفع ثمن فدان الارض المصلحة في اعالي البلاد من ٣٥ جنيهاً الى ثمانين وفي اسافلها من ١٥ الى ٣٥

وختم خطبتهُ بكلام بليغ قال فيهِ

ان امامنا الآن إحياء بلاد قديمة كان اسمها مرادفاً للخصب والفلاح والعظمة مدة قرون كثيرة فقد كان هناك سهول خصبة ومدن عامرة وملوك اعزاء وقوَّاد اشداء ورجال حكماء

تداولوها الوفاً من السنين كما تشهد كتب الاخبار ونقوش الآثار وهي لا تقل عن اخبار مصر وآثارها قدماً وصحة. وهناك أدلة كثيرة على غنى تلك البلاد وانها كانت مطمح انظار الفاتحين والتملك عليها غاية ما يفاخرون به فان الدولة التي كانت تملك تلك البلاد في العصور الغابرة كانت تملك المشرق والدولة التي تفقدها تفقد المشرق . بلاد مثل هذه جديرة بأن تحيا من مواتها وان عرفنا السبب الذي افقرها سهل علينا ان نعيد اليها خصبها السابق . والارض التي اجابت داعي العلم القديم فتدفقت منها خيرات كفت بلاط ملوك الفرس معها يؤثر عنهم من الانغماس في الترف والملاذ لا بدَّ من ان تجيب داعي العلم الحديث وتردَّ المال الذي ينفق عليها اضعافاً كثيرة . ولا بدَّ الآن من الاستعانة بمعارف الغرب على هذه الاعمال كما استعين سابقاً بمعارف الشرق . وقد كانت تلك البلاد تروى وتزرع بواسطة معارف حكماء الكلدان ومهندسيهم ومراقبي الاحداث الجوية منهم وصار احياؤها وزرعها الآن اصعب مما كانا قبلاً ولكن علوم ابناء هذا العصر صارت ارقى من علوم الاقدمين ولا يصعب معها رد تلك البلاد الى سالف مجدها فتعود جنة الشرق كما كانت قبلاً ويقصدها الناس من مشارق الارض ومغاربها

وتسمَّى بغداد دار السلام وقلما وجدت السلام من حين بنيت الى الآن لما حلَّ بها من تيمور لنلك وهولاكو وخلفائهما الذين اضروا بالبلاد اكثر مما اضرَّ بها تحوُّل دجلة عن مجراه. ولكنها ستجد السلام الذي اضيفت اليه تثنَّا وستجتمع الوف عشرات الالوف من العمَّال من الهند ومن مصر ايضاً يجتمعون في ذلتا دجلة يمدون سكة الحديد من الكويت الى الشمال وينحون ترعة من اوفيس الى الجنوب.

وستشرع السكة الحديد بنقل العمَّال والادوات من خليج العجم لحفر الترع واحياء الموات وانشاء المدن ولا يتم مدها واتصالها باسيا الصغرى حتى يكون جانب كبير من الارض قد أُصلح وكثرت خيراته لتنقلها السكة شرقاً وغرباً . وليس على وجه البسيطة ارض اصلح من اراضي دجلة لزرع الحبوب ولقد سمعت الدكتور شوينفرث رئيس هذه الجمعية السابق يقول فيها ان من هناك اصل القمح وانهُ كان ينبت برياً في تلك البطاح ومنها نقل الى اربعة اقطار المسكولة . ويخصب هناك القطن والذرة وقصب السكر وكل الحاصلات المصرية التي تنبت صيفاً وهناك وطن المزروعات الشتوية كالحبوب والقطاني والبرسيم والافيون والتبغ . وليست بي حاجة الى الكلام على فراديس بابل وبغداد القديمة . والارض التي اقليمها يزكي المزروعات زكاءها في الاقاليم الحارَّة وانهارها تسقى من ثلج الجبال فتروي ملايين الفدادين وقت اشتداد

الحروالظلم لا يعقل انها تبقى قفرًا قاحلاً بعد ان تخرقها سكة الحديد وتسعى عاصمتها بغداد وراء موارد الثروة . ولا بدَّ من ربح وافر لتلك الطريق ممَّا تنقلهُ من بضائع الشرق والغرب ولكن اذا عاد الى البلاد سابق خصبها وتدفقت منها الخيرات زاد ربحها ربحًا وتحققت فيها آمال الذين انشأوها وخالج نفوسهم احياء البلاد لما اشاروا بها

انتهى كلام السر وليم ولكس ملخصًا وقد الحق خطبتهُ برسوم كثيرة نقلنا واحدًا منها لكي يتضح للقارىء مواقع الاماكن التي ذكرها واضفنا اليهِ اسماء اماكن أُخرى اتمامًا للفائدة

شياطين تولستوي

تولستوي فيلسوف روسي من اشهر كتَّاب العصر كما لا يخفى وقد كتب الآن في ذم التمدُّن الحاضر وعدَّ اركانهُ كلها اضاليل وحبائل نصبها ابليس لاقتناص نفوس الناس . ومفاد ما كتبهُ ان ابليس جلس يومًا في دركات جهنم آسفًا لانهُ اضاع ملكهُ في هذه الدنيا بمجيء السيد المسيح وتخليصهِ لبني آدم . ومرَّت عليهِ السنون واليأس يمزق احشاءهُ لكن اعوانهُ لم ييأسوا يأسهُ فطافوا في الارض يكيدون المكايد للناس ثم عادوا وبشائر الظفر في وجوههم فقال واحد منهم انني زرعت بين الناس بزور الشقاق الديني واقنعت كل فريق منهم انهُ على هدًى وغيرهُ على ضلال ولابدَّ لكل فريق من ان يحارب الفريق الآخر ويقتلهُ لكي يقنعهُ بفساد معتقدهِ وقد تركتهم والحيلة ناجعة فيهم على ما يرام ولكنني خشيت ان ينتبهوا لها فيفسد عليَّ قصدي ولذلك اخترعت لهم ما يسمَّى بالكنيسة او الجماعة حتى اذا القوا اعتمادهم عليها اطمأنَّ بالي من قبلهم . فقال لهُ ابليس ماذا تعني بالكنيسة او الجماعة . وكأنهُ استاء لان بين اعوانهِ واحدًا يعرف ما لا يعرفهُ هو . فقال ذاك اني اعني بذلك الناس الذين يستشهدون بالله على صدق ما يقولون اذا عملوا ان الناس لا يصدقون اكاذيبهم . ثم اخذ يشرح ما فعلتهُ الكنائس والجماعات من اضطهاد بعضها بعضًا . فاستغرب ابليس ذلك وقال لهُ ولكن ماذا فعلوا بالوصية القائلة كما تريدون ان يفعل الناس بكم افعلوا هكذا انتم ايضًا بهم . فقال سمعت منهم قصَّة يتداولونها وهي ان ساحرًا اراد ان ينقذ رجلاً من شر ساحر آخر فحوَّلهُ الى حبَّة حنطة فحوَّل الساحر الآخر نفسهُ الى ديك واسرع اليها ليلتقطها فسبقهُ الساحر الاول وافرغ عليها اردبًّا من الحنطة فتعذَّر على الديك الاهتداء اليها وتعذَّر عليهِ ان يأكل حبوب الحنطة كلها لكي يأكلها في جملتها . وقد نصحتُ للناس ان يفعلوا مثل ذلك فغطُّوا هذه الوصيَّة بالوف من الوصايا والتعاليم حتى